الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشّعبية

وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمّد بوضياف– المسيلة

كـلّية الآداب واللّـــغات

قسم اللّغــة والأدب العربي شعبة الدراسات الأدبية.

السنة الثانية ليسانس.

الأفواج:1+2+3+4+5+6.

الحصة 6 من الأعمال الموجهة للمراقبة المستمرة في مقياس النقد الأدبي الحديث.

إعداد الأستاذ: عبد الرحيم بحري

عرض حال العمل الموجه في الحصة 4 للمراقبة المستمرة

ناقش ميخائيل نعيمة في مبحث من مباحث كتابه " الغربال" " المقاييس الأدبية" التي تحدد بها قيمة الأدب كاشفا أن هذه المقاييس ثابتة لأنها ترجمان لحاجاتنا الإنسانية الأبدية، حاثّا طبقة الكتاب الأدباء أن يتخذوها - حال رسمهم بالكلمات - دليلا وهاديا لا يحيدون عنه، حاضّا النقاد على اتخاذها ميثاقا نقديا يستحضرونه كلما وضعوا الأعمال الإبداعية على طاولة التشريح، فما هي هذه المقاييس؟ وما مدى مصداقيتها؟

إن الناظر في كتاب " الغربال" بعين الناقد ليكتشف أن "ميخائيل نعيمة" قد استقى مقاييسه الأدبية من حاجاتنا التي نتشارك فيها والإنسانية جمعاء؛ تلك التي لخص أهمها في " حاجتنا إلى الإفصاح عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية" و " حاجتنا إلى نور نهتدي به في الحياة، وليس من نور نهتدي به غير نور الحقيقة – حقيقة ما في أنفسنا، وحقيقة ما في العالم من حولنا" و" حاجتنا إلى الجميل في كل شيء، ففي الروح عطش لا ينطفئ إلى الجمال وكل ما فيه مظهر من مظاهر الجمال" (الغربال، 1978، 70)

وختم ذلك بـ " حاجتنا إلى الموسيقى، ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه " (المصدر نفسه، 71)

لقد وفق "ميخائيل نعيمة" في حصر حاجات الإنسان الكبرى في هذه الأربع، فلو نظر الواحد منا في حاجاته الروحية والنفسية لوجدها لا تخرج عما قرره صاحب "الغربال" ألا ترى أننا لا نقدر على العيش من غير إفصاح وتعبير عما يختلج ذواتنا ودواخلنا؟ من منا يستطيع العيش دون تعبير عما يجول في خاطره؟ إن التعبير هنا ليس بالضرورة بالكلمات، فقد يكون رسما وقد يكون إيماء وقد يكون فعلا أو سلوكا... ومن يعسر عليه التعبير يعيش مكتئبا وقد ينتهي به المطاف مجنونا أو منتحرا !!! إنه – أي التعبير- ضرورة إنسانية بل قل كونية ولن تجانب الصواب؛ فالحيوانات تعبر والطبيعة أصدق تعبيرا منها ومنا.

ولأننا مجبولون على النقص ومفطورون على حب الكمال فنحون أحوج إلى نور نهتدي به ولن يكون هذا النور إلا الحقيقة في أوسع معانيها، ولأن خالقنا أعلم بحالنا منا، ولأننا لن نستطيع بلوغ الحقيقة المطلقة أو الكاملة لقصر مداركنا أنزل الله الكتب وبعث الأنبياء وأرسل الرسل – عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم – لملء الفجوات المظلمة من الحياة وكشف الحقيقة في جوانبها الروحانية، ولتكون مرشدا لنا ودليلا حتى لا نضيع ونحن نبحث عن الحقيقة، وزودنا بنعمة العقل لنبحث في الجوانب النفسية والفيزيقية منها على هدى الرسالات السماوية، فكانت العلوم والمعارف التي لا يمكن إلا أن تكون ثمرة سعينا الدؤوب لإماطة اللثام عن أسرار الكون والاقتراب من الحقيقة الأبدية قدر المستطاع.

إن الناظر في تاريخ الإنسانية وتاريخ العلوم على وجه التدقيق ليدرك أن مسيرة الإنسانية ماهي إلا مسيرة البحث عن الحقيقة؛ حقيقة ما في أنفسنا – مثل علوم الشريعة وعلم النفس وعلوم الطب- وحقيقة الحياة من حولنا – مثل علم الاجتماع والتاريخ وعلوم الطبيعة والأحياء... –

ولأننا مهووسون بالجمال مضطرون إليه؛ لنا فيه عوز جبِلِّي، وعدنا به خالقنا الذي فطرنا عليه، فكانت الجنة الموعودة فيها من حور العين ومن الجمال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال أحد، وحثنا رسولنا – صلى الله عليه وسلم- على أن يتزوج الواحد فينا بمن إذا نظر إليها سرته، ولا أدلَّ على حاجتنا إلى الجميل من تنافسنا في هذه الدار على بلوغ الجمال ونيل الجميل، ألا ترانا نسعى جاهدينا لاقتناء الجميل من السيارات والبيوت والألبسة وتمتيع نظرنا بالجميل من المناظر والملاعب والمنشآت...؟

ولَئن لبّينا حاجاتنا المذكورة آنفا، يبقى فينا جوع إلى نوع آخر من الحاجات؛ إنه الجوع إلى الترانيم والموسيقى، ولأجل شرهنا إلى ذلك شرع الله لنا ترتيل القرآن وتحسين أصواتنا به، وشرع لنا الأناشيد كما شرع لأمم قبلنا الترانيم الدينية لا لشيء إلا لسد جوع جُبِلنا عليه، ولأن فينا من لم يكتف بذلك راحت الإنسانية تبدع أجمل السمفونيات، وتبتكر ألطف وأطرب الأغاني...

لأجل كل ذلك ولغيره، حرص صاحب " الغربال" ألا يُخاط ثوب الأدب إلا بخيوط حاجاتنا وألا يقاس إلا بميزانها، وألا تثمن قيمته إلا بعملتها، فعلى الأديب عنده أن ينسج أدبا يعبر عن عالمه الداخلي وما يعتريه من عواطف ومشاعر وما يختلج في نفسه من خواطر، فيشاركها قراءه إذ لا بد أن يوجد من القراء من سيقرأ ذاته في أعماله، فعواطف الناس ومشاعرهم وخواطرهم تتشابه وتختلف، تتشاكل ولا تتطابق، وعلى الأديب أن يكشف لعالم قراءه المفترضين حقيقة الإنسانية والعالم من حوله كما يراه هو لا كما يراه غيره، فالناس أحوج إلى معرفة نظرة الآخر إليهم وإلى العالم والحياة من حولهم، لأن البشر يكمّل بعضهم بعضا، وتلاقح الأفكار ضرورة إنسانية، وللناس مشارب يستقون منها الحقيقة؛ فمنهم من يجدها أو بعضها في الشرائع السماوية أو البشرية، ومنهم من يجدها في المعارف الإنسانية، ومنهم من يجدها في العلوم الوضعية، ومنهم من يرومها في الفنون والآداب... ثم هو – أي الأديب – مطالب بأن يخلق بخياله للآخرين - بعد أن كشف لهم حقيقة العالم من حولهم – عالما جميلا كما يتمثَّـله هو لا كما هو موجود، فيُسهم بخلقه للجميل المأمول في بعث الأمل وقتل اليأس، ويضع من حيث يشعر أو لا يشعر خارطة طريق لتغيير العالم من حوله نحو غد أفضل وأكثر إشراقا، وحتى لا يمل القارئ أو السامع على الأديب أن يكتب بلغة تأتلف حروفها مع المقام ولا تختلف، وتنسجم ألفاظها فلا تُستوحش، وتتسق تراكيبها فلا تتنافر، حتى إذا قرأت أعماله أو سمعت أطربت

بأصواتها وحروفها أذن متلقيها، فترقص نفسه على أوتارها، تلكم هي حقيقة الأدب القيم المفيد والممتع عند " نعيمة"، أما غيره فلا، وأولاء هن المقاييس التي ينبغي أن يقاس بهن الأدب، وهاتيكم هي شريعة الناقد ووصاياه اللائي يوشك إن حاد عنها في نقده للأدب أن يضل الطريق ويحجِّر بعيدا، وبقدر اقتراب الأديب منها يقترب أدبه من مجاوزة الزمان والمكان إلى فضاء الأزلية والعالمية ويبتعد عن الظرفية والمحلية.

الأدب إذا تعبير عما في نفس صاحبه، ومرأة تعكس حقيقة الإنسان والعالم من حوله، وخيال يخلق عالما جميلا مأمولا وموسيقى تطرب أصوات وحروف لغتها سامعها، وهو بكل ذلك إمتاع وإفادة.